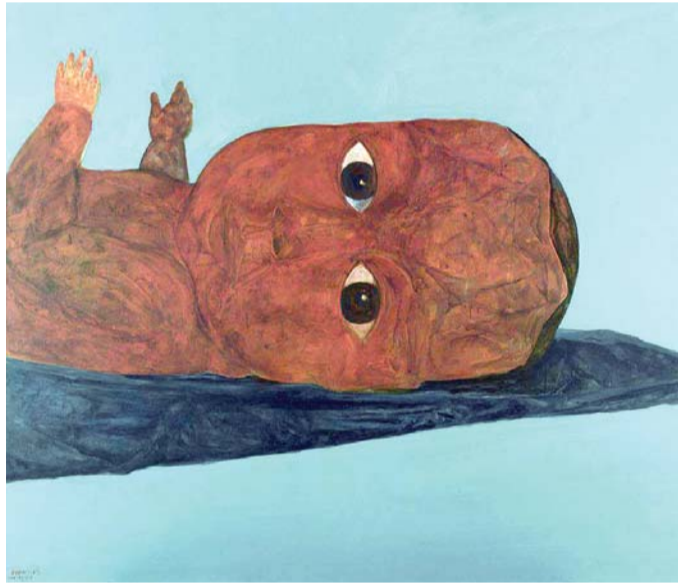


# هل يقتل الأدباء آباءهم لأسباب جنسية

## صورة الأب في المخيال الأدبي من الشرق إلى الغرب



لويس عوض، جلال أمين، بول أوستر، محمد شكري، ديفيد هيرت لورانس، فرانز كافكا، أليف شفق، كتاب قتلوا آباءهم



قتل الأب بعث الابن (لوحة للفنان عمران يونس)

ويما للغرابية، لقد كنت مُستعداً بشكك لافقت لتقبل هذا الموت عليّ الرغْم من بغتته. إن الذي شوّشني حقاً كان أمراً آخر، أمراً لا علاقة له بالموت أو ردة فعلي نحوه: اكتشفتُ أنّ أبي لم يترك وراءه أي أثر.

كما يصف الأب بالبخل، فيحكي عن مساومته للباغة، وعدم ذهابه إلى السينما بسبب أن الأفلام ستعرض في التلفزيون بعد عام أو عامين، وكذلك نوقه في الملابس كان متأخراً عشرين سنة، واعتزله الناس واحتفاظه بأشياء في منزله تنم عن إنسان حريص إلى حدّ البخل والتقدير الشديدين. كما يتهمه بأنه كان السبب في ما خلقه في نفس أبنائه من خذلان وكسر لهمة الابن، لدرجة عدم الوثوق في إبنائه بخبر سعيد، وهذه الحالة دفعت الابن للتشوّث بالألم، التي دائماً ما يصفها الأب بأنها ستفقد الابن، لكن المساحة الفارغة التي تركها الأب جعلت الابن يبحث عن بديل يعوضها ويملا فراغ الأب، ولم تكن سوى الأم التي استغلت حالة المرض التي أصيب بها الطفل كمبرر للدفاع عن هذا الالتصاق بينهما.

وقد كان مرض أخته عاملاً مهماً الذي يري الابن الأب في صورة المتخاذل ورفضاً لفكرة ذهابها لطبيب نفسي من الأساس. وكان الابن يشير بأصابع الاتهام إلى أبيه في ما أصاب أخته من مرض انتهى بها لأن تكون أسيرة علاج كيميائي لم يكن ناجحاً وقتها.

ويرسم نيكوس كازنتزاس (1883 - 1957) في "تقرير إلى غريكو" (1956) صورة لأب لابن نقبضة لصورة أمه التي اعتبرها قديسة، فكما وصفها "لها صبر الأرض واحتمالها وعدويتها"، في حين الأب باتي في صورة زنديق لا يحب القساوسة ولا يؤدي طقوساً دينية البتة. فنراه يستعرض علاقته بوالديه، في فصل خاص بالأب يشير إلى حالة من

الرواية أزمته العائليّة، فحسب فلسفته أن الأسرة التي لا يأخذ فيها الأب دوره الرئيسي تُعدّ، بمقاييسه، "أسرة مفككة وهشة وهي عُرضة للدمار تدمرها العُقد النفسيّة التي تظهر نتيجة العلاقات الأسرية المريضة"، وهو ما برع في تصويره عبر شخصية الابن (بول)، "لميريام" الفتاة التي أحبها، فعجزه هو نتيجة لأثر علاقته المتأزمة بابيه. ومع هذه الإشارات المتناثرة هنا وهناك، إلا أن ثمة أدباء أوقفوا جزءاً من أعمالهم للتعبير عن هذه العلاقة الإنسكالية، على نحو ما فعل الأميركي بول أوستر، وكافكا، ومحمد شكري، وغيرهم. وفي المقابل هناك من أجل الأب وأعطى له مكانة متميزة، على نحو ما فعل التركي أورهان باموق، فخص الأب بنصين أدبيين كشف عن خلالهما تأثير والده الفكري عليه، وأنه نتاج هذه المعرفة التي غرسها الأب، وهو ما كافاه عليه في خطاب نوبل، وردّه له جزءاً من الأمانة.

في هذه المقالة ساتوقف عند تمثيلات لعلاقة الصراع هذه بين الآباء والأبناء من خلال السير الذاتية والمذكرات الشخصية، والمرائي أيضاً الرسائل التي كتبها آباءهم من الغرب والشرق، وكيف تجسدت صورة الأب في المخيال الأدبي من خلال لحظات البوح والاعتراف التي تتيحها كتابات الذات. فالصورة، كما تبدو، أكبر من مجرد قتل للأب على السورق، بقدر ما هي مصالحة وتكفير عن خليعة فكرة القتل، نفسها، الماثلة في "الجزء الملوّث من القلب"، على حدّ تعبير ويليام بلتر بيتس في إشارته إلى أنّ للفن جذوراً غير محببة تكمن في هذا الجزء الملوّث.

### بقلب بارد

من أكثر الأدباء الذين عبروا عن حالة من الحنق والغضب إزاء الأب الكاتب الأميركي بول أوستر (1947). ففي كتابه "اختراع العزلة" (1982) يُجرد الأب من كل صورة إيجابية، بل نراه يتجرأ عليه في مواضع عدة، فالأب عنده "شخصية خيالية، رجل ذو ماضٍ مظلم، أما حياته الحاضرة فلم تكن سوى محطة وقوف فقط"، لذا نراه

يسعى إلى قتل الأب بالمعنى المجازي، على السورق، باستعداداً مواقف تخاذله في حقهم، فيجرده من صفات الأبوة وأيضاً من الصفات الإنسانيّة بصفة عامة. وهو ما ينعكس عليه عندما يأتي له خبر وفاته نراه يعترف "إنني لم أنشر دعماً، ولم أشعر بالعالم يتهاوى من حولي،

شخصيات تسعى إلى التحرر من هذه العلاقة بالتخلص من الأبوة. وفي رأيي إن هذه المحاولات والصراع واقعي بين الآباء والأبناء (الأدباء وأبنائهم الحقيقيين) حيث تُعرض قطاع كبير من الأدباء في حياتهم العائلية لطفولة خشنة، عانوا فيها من فرط قسوة الأب وإهماله، وهو ما انعكس على إبداعهم في ما بعد، فحفلت سيرهم الشخصية وكتاباتهم الروائية بتمثيلات لصورة الأب القاسي، والمهمل، وما تبعها من محاولات ذؤوبة لقتله ولو مجازياً على السورق، وإن كان بعضهم جنح خياله لمحاولة قتله فعلياً.

وقد تراوحت صيغ التعبير عن صراعية العلاقة بين إنكار تام لنسبه لعاملته والسده له، فجاءت رسالته إليه (رسالة إلى والدي) بمثابة إعلان تمرد صريح على هذه الأبوة بل ومحامتها على السورق، فيقول "أنت خلقت كل كتاباتي، لقد قلت فيها ما لا أستطيع قوله، وأنا على صدرك" وتارة ثانية يقول لميلينا في إحدى رسائله "إن والده الذي كان يعمل بتجارة الخردوات كان جزءاً من التعاسات وهو سبب كل معضلة تصيبه"، وعندما كان يعجز عن مواجهته كان يلجأ إلى الكتابة. أما دوستويفسكي، فقد كان يكره ويمقت والده ممقاً شديداً، نظير ما عاناه منه وكان يتمنى أن يقتله، مع أن الرسائل المتبادلة بينهما كانت تشي بعكس ما كان يضره تجاهه.

وجاءت كتابات ديفيد هيرت لورانس (1885 - 1935) صاحب رواية "عشيق اللبدي تشاترلي" (1928) تجسيدا لهذه العلاقة المتأزمة بينه وبين أبيه، وهو ما صوّره بصورة تفصيلية في روايته "أبناء وعشاق" (1913) حيث عكست

موجهة إلى الأب وليس إلى الأم، ومن ثمّ يكون الميل إلى التحرر من الأب وليس من الأم.

وفي مرحلة البلوغ يعتقد الأبناء أن تحقيق الأمان، على حدّ نظرية فرويد، يمثل تصحيحاً للحياة نفسها، وفي تلك يتبع هدفين بالدرجة الأولى وهما: الشهوة الجنسيّة والطموح، وفي نفس الوقت تنشغل فانتازيا الطفل في هذه المرحلة بمهمة محددة ألا وهي "التخلص من الأبوين المستهينين به وتعويضهما عادة بمن هم أرفع منزلة اجتماعية". اللافت أن فرويد يعود ويقول إن مراجعة الخيالات الروائيّة، أي تصورات الأبناء للأبوة في مخيلتهم، تأتي عوضاً عن الآباء الحقيقيين، أي فكرة تعويض الأبوين، أو إبدال الأب بمن هو أفضل منه شأنًا، فيعد المراجعة ستكشف أن الأبوين الجديدين والنبيلين يحلمان عموماً ملامح الأبوين الحقيقيين ذوي الأصل المتواضع.

وهو ما يعنى أن محاولة رفع الابن الأب، أب أعلى منه منزلة، لا يعني إلغاء الأب على الإطلاق، وإنما هي مجرد "تعويض عن حنين الطفل إلى الزمن السعيد المفقود الذي بدا فيه أبوه من أشد الرجال نبلاً وقوة، وكانت فيه أمه من أطيب النساء وأجملهن على الإطلاق"، وهو ما عبّر عنه أورهان باموق تعبيراً جيداً في ترسيم علاقته بابيه بقوله "إننا لا نريد أباعاً أن يكونوا أفراداً، إنما نريدهم أن يكونوا متوافقين مع المثال الذي ترسمه لهم".

وإن كان بول ريكور في صراع التاويلات يتخذ من تحليلات فرويد عن العقدة الأوديبية ذريعة ليقول إن "نقطة النقد في الأوديب تكمن في البحث في التأسيس البدني للرجبة، أي في جنون العظمة الذي ألم بها، وفي كل القدرة الطفولية، إذ إن منها يصدر استيهاً أب يُمسك بامتيازات يجب على الابن أن يستولي عليها لكي يستطيع أن يكون هو ذاته".

### قتل الأب أدبياً

جسدت الأعمال الأدبيّة نظرية قتل الأب، التي ردها فرويد إلى اعتبارات جنسية بحتة، خير تجسيد، وقد قدمت مرويات عديدة نماذج صارخة لحالات/

تبدو العلاقة بين الآباء والأبناء في ظاهرها علاقة مبنية على مشاعر متباينة تجمع بين الحب والاحتواء من طرف الأول (الأب) للثاني (الابن)، والاحترام والطاعة من جانب الثاني للأول، إلا أنها في باطنها قائمة على صراع متبادل بين طرفين: فالأول يريد احتواء الثاني بعدم الخروج عن طوعه وإرادته، في حين يسعى الثاني إلى التمرد على الأول. وهذه العلاقة بين الآباء والأبناء نجدها تتجسد بشكل كبير في عالم الأدب والأدباء.



ممدوح فراج النابوي كاتب مصري

عبر الكاتب المصري نجيب محفوظ (1911 - 2006) في مشهد رائع في رواية "قلب الليل" (1975) عن الصراع بين الأب والابن على لسان محمد شكرون لجعفر الراوي عندما سألته عن موقف جده من أبيه، فقال "علاقة الأب بابنه علاقة غامضة على الرغم من وضوحها السطحي، أحياناً يتدفق منها الحنان وأحياناً تتجمد بالقسوة، عرّجني هذا الذي تراه ما هو إلا عاهة صنعها أبي في ساعة غضب، أما أخلاق الرجل الحقيقية فتقيم على ضوء علاقته بالآخرين..".

والجدير بالذكر أن هذا الصراع، صراع أزلي، قديم لم (ولن) يُحسم لصالح أحدهما على الإطلاق على حساب الآخر الشريك في علاقة معقدة ومتشابكة في أن معاً: لأن المحكم في هذه العلاقة على تعدد أسبابها هو العاطفة فحسب، والعاطفة لا أحد يستطيع التحكم فيها، وتوجيهها حينما يريد أحد الأطراف من الطرف الآخر.

## محاولات وتمثيلات قتل الأب في الأدب ما هي إلا تجسيد فعلي لصراع واقعي بين الآباء والأبناء الأدباء وأبنائهم الحقيقيين

ومن ثمّ شاب هذه العلاقة الغموض تارة والصراع في مرات عديدة؛ لذا تشتمل هذه العلاقة على شعوري الحب والكرهية المتأزمتين نحو الأب، وهذا يرمز إلى الصراع الأبدي القائم بين كراهية الأب وحبه؛ أي بين الخوف منه كعصير للخطر والشعور به كعصير للأمان في وقت واحد. وقد صاغ سيجموند فرويد (1856 - 1939) من هذه الجدلية نظريته عن العقدة الأوديبية التي هي "مجموعة من الأفكار والتصوّرات اللاشعورية، المثقلة بنسجته وجدائيّة قويّة متناقضة في مضمونها الانفعالي تجاه الأب".

### الأب البديل

يشير فرويد في كتابه "الغريزة والثقافة" (1930) إلى أن هناك أحداثاً صغيرة من بها الأبناء في حياة الطفولة تتسبب في نشوء مزاج عكس، يدفعهم في مرحلة لاحقة إلى انتقاد الآباء، أو ما يوازي الرمز الأبوي في مخيلتهم في مراحل لاحقة، كالرؤساء والمدبرين والقادة.. إلخ.

اللافت أن الانفعالات العدوانية التي يصيغها الأبناء في صورة انتقادات تكون

## علاقة الصراع بين الآباء والأبناء تظهر من خلال السير الذاتية والمذكرات والمرائي والرسائل التي كتبها الأدباء

لم يقتل أحد الأب بقلب بارد مثلما فعل الكاتب المغربي محمد شكري (1935 - 2003) في سيرته "الخيز الحافي" (1972)، فهو لم يترك نقبضة إلا وأصفاها به، دون تقوّل أو تحيّر ضده، فالأب عند شكري هو رديف للتسلط والاستبداد والقهر، حتى بدت صورته "مثل عملاق يتحكم في الإقزام، نحن كنا أغنامه، يستطيع أن يبدأ بذبح من يشاء. اختي ارحيمو منكشة على نفسها وأمي تكي".

إضافة إلى أنه متهاون في مسؤولياته وعاجز عن واجباته، ومدمن للمخدرات، ويتحول في عنقه إلى وحش كاسر في هجومه على أمه المستكينة، وقد انتهى به الحال في إحدى نوبات هيجانه إلى قتل أحد أبنائه. ويزعمه هذه المواقف كان يتمنى شكري قتله فعلياً ليخلص أمه وأخته من هذا الأب المتسلط، فكما كان يقول في استهتاماته "في الخيال لا أنكر كم مرة قتلته، لم يبق لي إلا أن أقتله في الواقع".

